

المحاضرة الثانية: نشأة وتطور السياحة عبر التاريخ.

تمهيد:

السياحة ليست نشاطا جديدا في حياة الإنسان، بل هي ظاهرة ارتبطت بتطور الإنسان نفسه منذ العصور القديمة. وقد مرت السياحة بمراحل تطويرية هامة شكلت ملامحها حتى وصلت إلى صورتها الحديثة في القرن العشرين والواحد والعشرين. لذلك تركز هذه المحاضرة على مفهوم السياحة عبر التاريخ، وأبرز مراحل تطورها.

أولا: السياحة في أصولها الإنسانية

السياحة كحركة إنسانية نشأة وتطورت عبر العصور بناء على عوامل متعددة مثل التقدم الحضاري، التطور الاجتماعي، التقني، وكذلك التغيرات السياسية والاقتصادية.

من خلال هذه النشأة سوف نتعامل مع تطور السياحة عبر العصور ليس بالتركيز على مفهومها أو على مظاهرها وبداية السياحة كنشاط إنساني بل بالتركيز على السياحة كفكرة تطورت عبر الزمان، والمكان عبر الحضارات الإنسانية وصولا إلى اعتبارها اقتصاد، وصناعة تعتمد عليها البلدان في دخلها القومي.

فارتبطت السياحة بأشكالها التنقل والسفر بالنشاط البشري منذ نشأة الإنسان نفسه، فقد كان الإنسان القديم يسافر للبحث عن الغذاء، الماء، والكأ، وكذلك لأداء الشعائر الدينية أو الانخراط في التجارة. ويمكن اعتبار هذه الأنشطة أولى صور ما يمكن توصيفه بالسياحة، باعتبارها تنقلات إنسانية لدوافع غير الاستقرار الدائم، على سبيل المثال:

- التنقل للتجارة بين المجتمعات المختلفة.
 - الرحلات الدينية في ديانات متعددة، التي تشبه ما نعرفه اليوم من سياحة دينية، وفي هذه المرحلة لم تكن هناك بنية تنظيمية أو مؤسسات تدير هذا النشاط، ولكنها تعد أساس السفر لأغراض غير العمل الدائم.
- وفيما يلي يتم سرد تطور نشاط التنقل والسفر عبر العصور.

ثانيا: السياحة في العصور القديمة

في العصور القديمة السياحة طبعا لم تكن كما نعرفها اليوم، ولكن كان هناك سفر لأغراض مختلفة مثل: التجارة، الدين، الاكتشافات، وتركت الحضارات التي نشأت في هذه العصور العديد من المعالم السياحية التي يزورها السياح اليوم، حيث قدم المصريون القدامى، والرومان، واليونان العديد من المعابد والأماكن المقدسة والمسارح. وكان السفر في هذه الفترات يقتصر على النخبة: الملوك، النبلاء، التجار بشكل أساسي.

1- في الحضارة المصرية:

المصريون الذين بنوا الأهرامات وغيرها من المعالم السياحية التي لا تزال حتى اليوم تجذب السياح من مختلف مناطق العالم. كانت السياحة للطبقات الحاكمة وحاشيتها. كما أن بناء الأهرامات كانت سببا رئيسيا في جذب عدد كبير من الزائرين الذين جاءوا إلى مصر لمشاهدة تلك العجائب التي تمثل مكانا مقدسا للزائرين، وإن كان الدافع

الحقيقي للزيارة هو الفضول والرغبة في المعرفة، والمتعة وسواء كان الدافع الديني أو المعرفة أو المتعة، فهي من تمثل بدايات الحركة السياحية المقصورة ذات أهداف. كما أو زيارة الأهرامات بدافع ديني أو بدافع الرغبة في المعرفة أو المتعة، هو كذلك واحد من المزارات الدينية، وهنا يبرز جليا دور الفكرة والتخطيط وإدارة في ترتيب الزيارة مما يظهر أن السياحة في العهد القديم لم تكن عملا تلقائيا يتم بمجرد الرغبة والأهواء في تمضية الفراغ وامتناع النفس.

2- في الحضارة اليونانية:

تطور الحياة في اليونان ورفاهية المجتمع واتجاهه نحو الاستمتاع بالوقت والتسلية وقضاء أوقات الفراغ، فإن طبقات الحكام والسادة قد ابتكروا العديد من الوسائل لتحقيق ذلك الهدف إلى أن بلغت ذروتها في التنظيم والإعداد بظهور الألعاب الأولمبية التي هي نتاج تجارب السابقة لها، تأسست معها حركة نشطة لحضور تلك المنافسات.

3- السياحة في العصور الوسطى

في العصور الوسطى ازداد السفر لأغراض دينية وخاصة في أوروبا والشرق الأوسط. وفي هذه الفترة التي تعرف ازدهار الحضارة العربية، وقد ارتبطت بالتنقلات التجارة والحج، مثل حركة الطرق التجارية الكبرى كطريق الحرير التي ساهمت في تبادل البضائع، والأفكار، وممارسة أنماط من الترحال التي تقترب من السياحة في بعض مفاهيمها.

4- السياحة في عصر النهضة:

شهدت السياحة في عصر النهضة الأوروبية تحولا نوعيا ارتبط بالتحويلات الفكرية، الثقافية، والاقتصادية التي ميزت تلك المرحلة. فلم تعد الرحلة مجرد تتقل بدافع الضرورة، بل أصبحت وسيلة للمعرفة، التثقيف، والمتعة كما هو موضح فيما يلي:

- **الدوافع الثقافية والتعليمية:** ارتبطت السياحة في عصر النهضة بالاهتمام بالعلوم الإنسانية، الفنون، والآثار الكلاسيكية. فكان المثقفون والطلاب والنخب يسافرون إلى مدن مثل: روما، فلورنسا، وباريس للاطلاع على التراث الإغريقي-الروماني، وحضور الجامعات، ومشاهدة الأعمال الفنية.
- **ظهور الرحلات التعليمية:** برزت ما يعرف بالرحلة الكبرى، وهي رحلات طويلة يقوم بها أبناء الطبقات الأرستقراطية، خصوصا في إنجلترا، لزيارة أهم المراكز الثقافية في أوروبا بهدف استكمال التربية والتعليم واكتساب الخبرة الاجتماعية.
- **تحسن وسائل النقل والبنية التحتية:** أسهم تطور الطرق البرية، وازدهار الملاحة البحرية، وتحسن الأمن النسبي في تسهيل السفر، كما ظهرت نزل، ومرافق استقبال لخدمة المسافرين، مما شكل نواة أولية للبنية السياحية.
- **السياحة الدينية والثقافية:** استمرت السياحة الدينية خاصة إلى روما، لكنها تداخلت مع السياحة الثقافية والفنية، حيث أصبح السياح يزورون الكنائس والمتاحف والآثار جامعين بين الدافع الديني والمعرفي.

وبالتالي مهد عصر النهضة لظهور مفهوم السياحة بوصفها نشاطا إراديا مرتبطا بالترفيه والثقافة، وأسس لانتقال

السياحة من نطاق محدود إلى ممارسة اجتماعية وثقافية لها أبعاد تعليمية وحضارية حديثة.

5- السياحة في العصر الحديث:

تمثل السياحة في العصر الحديث مرحلة النضج والتنظيم، حيث تحولت من نشاط محدود تمارسه النخب إلى ظاهرة اجتماعية واقتصادية عالمية، ارتبطت بالتقدم الصناعي والتكنولوجي وتغير أنماط الحياة حسب ما توضحه العناصر التالية:

- **الثورة الصناعية وبداية السياحة الحديثة:** أسهمت الثورة الصناعية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في تطوير وسائل النقل، خاصة السكك الحديدية والسفن البخارية، مما سهل حركة السفر وخفض تكلفته. كما أدى تنظيم وقت العمل وظهور الإجازات المدفوعة إلى توسيع قاعدة الممارسين للسياحة.
 - **تنظيم النشاط السياحي وظهور المؤسسات:** شهد العصر الحديث ظهور وكالات السفر وشركات السياحة ويعد "توماس كوك" من رواد تنظيم الرحلات السياحية الجماعية. كما تطورت الفنادق، وظهرت أنظمة الحجز والتأمين، والخدمات السياحية المتكاملة.
 - **تنوع أنماط السياحة:** اتسع مفهوم السياحة ليشمل أنماطا متعددة، مثل السياحة الترفيهية، الثقافية، الدينية العلاجية، الرياضية، وسياحة الأعمال، مما يعكس تنوع حاجات السائحين وتغير دوافع السفر.
 - **التطور التكنولوجي وتأثيره في السياحة:** أحدثت وسائل النقل الحديثة، خاصة الطيران المدني، ثورة في حركة السياحة الدولية. كما ساهمت تكنولوجيا المعلومات والاتصال في تسهيل التخطيط للرحلات، والحجز الإلكتروني، والتسويق السياحي عبر الإنترنت.
 - **السياحة كقطاع اقتصادي عالمي:** أصبحت السياحة من أهم القطاعات الاقتصادية، لما لها من دور في خلق فرص العمل، وتنمية الأقاليم، وتعزيز التبادل الثقافي بين الشعوب. كما برزت السياحة كأداة للتنمية المستدامة في العديد من الدول.
- المعروف أن السياحة الحديثة ليست مجرد انتقال بل صناعة متكاملة تستفيد من التكنولوجيا ووسائل الاتصال العالمي. ورغم تطور السياحة في هذا العصر إلا أنها تواجه تحديات متعددة، مثل الضغوط البيئية، الاكتظاظ السياحي والأزمات الصحية والأمنية، مما يستدعي تبني سياسات سياحية مستدامة ومتوازنة.

6- السياحة في الفترة المعاصرة:

- تمثل السياحة في الفترة المعاصرة المرحلة الأكثر تطورا وتعقيدا في تاريخ النشاط السياحي، حيث تميزت بالعولمة، والتقدم الرقمي، وتزايد الوعي بقضايا الاستدامة، مما جعل السياحة ظاهرة عالمية ذات أبعاد اقتصادية اجتماعية، ثقافية، وبيئية متداخلة. ويمكن توضيح ذلك في النقاط التالية:
- **العولمة وتسارع الحركة السياحية:** أسهمت العولمة في تكثيف تدفقات السياحة الدولية، مدعومة بتطور شبكات النقل الجوي منخفض التكلفة، وتسهيلات التأشيرات، والانفتاح الاقتصادي، مما جعل السفر أكثر

سهولة وانتشارا.

- **التحول الرقمي والسياحة الذكية:** أحدثت الثورة الرقمية تحولا جذريا في السياحة المعاصرة، من خلال الحجز الإلكتروني، ومنصات السفر الرقمية، والخرائط الذكية، والذكاء الاصطناعي، وتجارب الواقع الافتراضي، مما غير سلوك السائح وطرق إدارة المقاصد السياحية.
- **تنوع السياحة المتخصصة:** برزت في الفترة المعاصرة أنماط سياحية جديدة ومتخصصة، مثل السياحة البيئية، السياحة المستدامة، السياحة الريفية، سياحة المغامرات، السياحة الإبداعية، والسياحة الطبية، استجابة لتغير أذواق السائحين وارتفاع الوعي البيئي والثقافي.
- **السياحة والتنمية المستدامة:** أصبح مفهوم الاستدامة محورا أساسيا في السياسات السياحية المعاصرة، بهدف تحقيق التوازن بين النمو الاقتصادي، وحماية البيئة، والحفاظ على الهوية الثقافية للمجتمعات المحلية، وتقليل الآثار السلبية للسياحة الجماعية.
- **الأزمات العالمية وتأثيرها على السياحة:** تأثرت السياحة المعاصرة بالأزمات الصحية، الاقتصادية، والأمنية مثل الجوائح العالمية والتغيرات الجيوسياسية، ما دفع إلى تبني استراتيجيات جديدة تقوم على المرونة، وإدارة المخاطر، وتنويع الأسواق السياحية.
- رغم التحديات، تظل السياحة في الفترة المعاصرة أداة فعالة لتعزيز الحوار بين الثقافات، والتفاهم بين الشعوب ونقل القيم والمعارف في إطار عالمي متشابك.

خاتمة:

يمكن القول إن السياحة تطورت عبر التاريخ من مجرد تنقلات إنسانية أولية لأغراض الحياة الأساسية، إلى ظاهرة حضارية متعددة الأبعاد، ذات تنظيم وتخطيط في العصر الحديث. وقد كانت مراحل تطورها مرتبطة ارتباطا وثيقا بتقدم المجتمع، وتطور وسائل النقل والتكنولوجيا، وتحولها من نشاط فردي بسيط إلى صناعة عالمية متكاملة.